رواية تل الحكايا

القدس:١٨-٣-٢٠١٠ناقشت الندوة رواية تل الحكايا للأديبة الدكتورة وداد البرغوثي، تقع الرواية التي صمم غلافها مهدي شمص عام ٢٠٠٧ والصادرة عن دار الخيال في بيروت في ٢١٧صفحة من الحجم المتوسط.

بدأ **جميل السلحوت** فقال:

وداد البرغوثي: شاعرة وروائية وقاصة وصحفية فلسطينية مولودة في العام ١٩٥٨ في قرية كوبر قضاء رام الله.

-تحمل شهادة الأستاذية – الدكتوراة في الصحافة والإعلام.

-عملت وكتبت في عدة صحف ومجلات محلية وعربية.

-تعمل الآن رئيسة لقسم الإعلام والصحافة في جامعة بير زيت.

-صدر لها عام ١٩٩١ ديوان شعر– سقوط الظلّ العالي–للفقراء فقط .

-رواية ذاكرة لا تخون عام ١٩٩٩.

obeikandl.com

-الوجوه الأخرى – رواية عام ٢٠٠٧.

-رواية(تل الحكايا) التي نحن بصددها .

تفتتح الكاتبة روايتها بالإهداء الذي جاء في سطره الأول(إلى أبي في ثراه، رمزاً لكل المناضلين الذين أكلهم الآخرون لحماً ورموهم عظماً) وهذا بحد ذاته مع ما يمثله من وفاء الكاتبة وحبّها لوالدها حيّا وميتاً يشكل اختصاراً لمضمون الرواية، فوالدها المرحوم عادل البرغوثي أمضى عمره في خدمة وطنه وشعبه، وقضى في السجون أكثر من عشر سنوات وفاء لمبادئه، بل إنه خسر حياته الشخصية في سبيل ذلك،عانى من عذابات التحقيق ومرارة السجون، وشظف الحياة، بل إن أسرته عانت هي الأخرى جراء ذلك، مات وماتت معه أسرار كثيرة، فرضتها ظروف العمل النضالي السري الذي عاشه، وهذا ما شكل حيزاً كبيراً في فكر ابنته الكاتبة التي كانت حريصة على معرفة أسرار والدها حتى تنصفه ميتاً على الأقل: (لقد ظُلم هذا الرجل، ظُلم كثيراً من قبل أناس تعذب وقدم جسده على مذبح أمنهم وسلامتهم، من أجل الحفاظ على أسرارهم، وها هم يتنكرون له، فهل أقل من محاولة رد اعتبار أقوم بها إزاءه)؟ص٢٠

والكاتبة التي هي(نجاة)في الرواية عانت هي الأخرى كنتاج طبيعي لمعاناة والدها، فقد زارته مرة واحدة في السجن، وهي في عمر الخامسة تقريباً(كانت هذه أول مرّة أرى فيها أبي ويراني، فقد ولدت بعد اعتقاله بحوالي سبعة أشهر، ليكون يوم إطلاق سراحه الثاني ثاني مرّة أراه فيها)ص٢١

ومعروف أن والدها اعتقل في العام ١٩٥٧وحكم بالسجن خمسة عشر عاماً بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي الأردني، وأفرج عنه بعفو ملكي في العام ١٩٦٥ أي أنّه اعتقل و(نجاة) في شهرها الثاني في رحم أمها.

ويعتقل والدها مرة ثانية في العام ١٩٧٤ على أيدي قوات الاحتلال الاسرائيلي، حيث كان يقود الجناح العسكري للجبهة الوطنية الفلسطينية التي تشكلت من تحالف بعض الفضائل الفلسطينية بقيادة التنظيم الشيوعي الفلسطيني في حينه، والذي تحول لاحقاً الى الحزب الشيوعي الفلسطيني، ثم الى حزب الشعب الفلسطيني بشكله الحالي، ويتعرض(سعيد) لتعذيب شديد لفترة طويلة، يقول رفيقه الأسمر:(أبو جهاد لم ينبس ببنت شفة، لقد عضّ على الألم، حمانا بصمته، حمانا بصموده، حمانا بألمه)ص٢١ وأبو جهاد هو(سعيد)في الرواية ،هو والد نجاة، هو ذلك الفلاح الذي كتبت عنه مجلة الغد الحيفاوية عند اعتقاله(الفلاح الذي يستحيل تحطيمه) ويقول رفيقه المالحي عن صموده(في التحقيق لم يسألوني عن شيء مما هو مشترك بيننا، كل من ينهار ويدلي بمعلومة صار يخرج بطلاً، ويحملها للعبد الفقير سعيد الفلاح، لذا لم يحققوا معي أنا حول علاقتي به، لأنني لم أعطهم شيئاً، ولو كان هو اعترف وأعطاهم لما أنهوا التحقيق معي)ص١٣٧

إذا ما الذي اعترف به سعيد الفلاح –هذا الرجل الصلب الذي يعتبر الاعتراف خيانة– وكان سبباً كافياً لمهاجمته ومقاطعته من قبل الآخرين، بالرغم مما تعرض له من تعذيب جسدي ونفسي كبيرين، بما في ذلك التهديد بالاعتداء على

ابنته نجاة،(وازن بين أمرين،ما وصلهم من المعلومات من اعتراف غيره، عن وجود المتفجرات بحوزته وصل وانتهى، المتفجرات لم تنفع أحداً، وأصبح يخشى من وجودها في أرضه أن تنفجر ذات يوم بأحد، فينكشف أمرها وأمره، بعد أن تقتل أحدا من أفراد عائلته،أو أحدا من الرّعاة،درس الأمر في ذهنه، أن يعطيهم هذا القليل الذي يعلمون به مقابل الحفاظ على الكثير الذي لا يعرفونه)ص٢٠٧

لكن الكثيرين ممن أدلوا باعترافات حول كل ما ومن يعرفونه لبسوا ثوب البطولة، وحمّلوا المسؤولية الكاملة لسعيد الفلاح، الذي هوجم على ذنوب وخطايا الآخرين، واختار الصمت رفيقاً له الى أن انتقل الى جوار ربه، عاش كادحاً مناضلا صلباً صامتاً، ومات دون ضجيج، فهل كانت نجاة منحازة الى والدها؟ بالتأكيد هي منحازة له وهي فخورة به، لكنه والحق يقال هكذا كان، ويحق لها ولشعبه أن ينحازوا له وأن يفخروا به.

وفي تقديري أنّ الراوية(نجاة) لم تقصد أن تكتب جزءاً من سيرتها الذاتية إلّا بمقدار ما يخدم سيرة والدها– سعيد الفلاح – فقد حرمت من والدها في طفولتها المبكرة، حيث اعتقل والدها ووالدتها حامل بها في شهرها الثاني، وأفرج عنه وهي في السابعة من عمرها، ومع ذلك لم يتفرغ يوماً لأسرته الصغيرة، كان يوازي بين العمل في الأرض لإعالة الأسرة، وبين العمل النضالي السرّي، فقد ثلاثة من أبنائه أطفالا –عفاف ونضال وجهاد – نتيجة للفقر وقلة الرعاية الصحية، مات وهو أب لفتاتين، لم يحاول الزواج مرة أخرى على زوجته طمعاً

في إنجاب ابن ذكر في مجتمعنا الذكوري، واحترم انتظار زوجته له وهو في السجن، ذاقت زوجته وابنتاه مرارة العوز والحاجة، والحرمان من كسوه وحذاء حتى في الأعياد وكبقية الأطفال، ومع كل هذا فقد كان حريصاً على تعليم ابنته نجاة، تحدى كلّ العادات والتقاليد التي تمنع فتاة من الانتقال من قرية الى المدينة حتى لطلب العلم، لكنه كان على درجة كافية من الوعي بأن يوفر الحماية لابنته حتى أكملت دراستها الثانوية، وازداد تحدياً للجميع بأن وقف معها وجهزها بما تحتاجه ديناً لتسافر الى الاتحاد السوفيتي في بعثة لاكمال دراستها الجامعية، ولم تقتصر رعايته لأسرته الفقيرة بل كان عوناً لأشقائه وشقيقاته أيضاً.

وسعيد الفلاح عاش في أسرة قروية عادية، السلطة فيها للجد وللأب من بعده، لم تتح له فرصة التعليم إلّا في الكتاتيب– تعلم القراءة والكتابة في سجن الجفر الصحراوي على أيدي زملائه المعتقلين– عمل في الأرض ورعى البقر، ونام معها في البراري وهو طفل صغير، وتزوج من ابنة عمّه التي تكبره في العمر بقرار من أبيه كما هي عادة أبناء القرى في جيله.

لم يتذمر، وانضم الى الحزب الشيوعي عن طريق معلم مدرسة في قريته وهو من قرية مجاورة، ومعلم المدرسة محمد القرشي مقصود به المرحوم سليمان النجاب عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وعضو المكتب السياسي لحزب الشعب. وكان سعيد الفلاح يتحلى بوعي كافٍ لاكتشاف ألاعيب(الشيخ) سلامة الذي ادعى قدرات خارقة، وهو محتال احتال على أبناء القرية، واستغل نساءها

ورجالها، فهدّده هو ورفيقه وأجبراه على الفرار الى حيث لا رجعه.وسعيد الفلاح هو ذلك الفلاح البسيط الوفيّ، يمثل نقاء القرية وطهرها .. لم يسع في حياته الى مصلحة شخصية بمقدار ما سعى الى خدمة شعبه ووطنه.

وتتحدث الرواية عن الغزو الإسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢ وكيف تطوع الطلبة الفلسطينيون في جامعات دول أوروبا الشرقية للدفاع عن الثورة الفلسطينية، وعن مرحلة انشقاق عربي عواد عن الحزب الشيوعي الفلسطيني.

وواضح أن ذاكرة الأديبة وداد البرغوثي ترهقها كثيرا، فهي تعتمد على بحر ذاكرتها منذ طفولتها المبكرة في سرد إبداعاتها الأدبيّة والفكريّة، ولا يفوتنا هنا أن ننوه بروايتها الأولى(ذاكرة لا تخون).

الأسلوب:لغة الرواية بسيطة سلسة فيها بلاغة وفيها مباشرة، وأسلوب الحكاية يطغى عليها، وكانت تجنح أحياناً الى ما يشبه التقارير الصحفية، كانت تؤرخ لحياة سعيد الفلاح– والدها– من خلال هذه السيرة كتبت الرواية الشعبية كسيرة لمناضل شعبي،وللتأريخ لجانب من تاريخ القضية الفلسطينية.

وقال **محمد عليان**:

تل الحكايا .. ما بين السيرة الذاتية والغيرية

ربما اعتدنا أن نقرأ السيرة الذاتية لهذا الكاتب أو ذاك، يتحدث فيها عن محطات هامة ومفصلية في حياته، ولكن من النادر جدا أن نقرأ السيرة الغيرية أي أن

يوثق الكاتب بأسلوب أدبي روائي سيرة الغير، فهذا يتطلب الكثير من الموضوعية والنزاهة والقدرة أيضا على نقل أحداث وتوثيق محطات لم يكن الكاتب العنصر الأساسي فيها، وهنا تكمن صعوبة وخطورة هذا النوع من الكتابة، تل الحكايا سيرة غيرية ممزوجة بسيرة ذاتية، ولكن حتى سيرتها الذاتية كانت قد تكونت وتبلورت بتأثير مباشر من سيرة الغير، وهي سيرة والدها المناضل الذي أثارت تجربته النضالية جدلا واسعا ومفصليا في الإطار الحزبي الذي كان ينتمي إليه، فضلا عن الوسط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه.

ورغم ان الكاتبة وعلى لسان بطلتها نجاة تكتب وتروي قصة حياة الغير وهو والدها،إلا أنها لم تنقل الأحداث على نحو حيادي بصفتها راوية او متفرجة، بل أبرزت وعلى نحو مبدع اثر هذه الاحداث على صقل شخصيتها،وتطور فكرها وتوجهاتها السياسية والحزبية، وكانت جزءا لا يتجزأ من هذه التجربة، بحيث بدت الرواية وكأنها سيرة ذاتية، امتدت على معظم مراحل حياتها بدءا من الطفولة وانتهاء بمرحلة النضوج السياسي والفكري. وقد أبدعت الكاتبة في نقل الاحداث من وجهة نظر الراوية ورؤيتها للحدث وتفسير أبعاده، حيث أن تفسير نجاة الطفلة للحدث يختلف عن تفسيرها وهي في مرحلة الدراسة في المدينة أو الدراسة الجامعية،مما جعل الرواية تقترب الى حد التماثل مع الواقعية والمنطق .

رسائل كثيرة أرادت الكاتبة نقلها عبر صفحات هذه الرواية، ليس أولها ولا آخرها نقل محطات هامة من النضال الفلسطيني ودور المناضلين الذين لم

تنصفهم الذاكرة الفلسطينية، والذين كان لهم كبير الأثر في ترسيخ المفاهيم الثورية، ووضع اللبنات الأولى في العمل الحزبي في الوطن الفلسطيني، لقد رصدت الكاتبة تجربة الرعيل الاول في الحركة الوطنية الفلسطينية، وخاصة الحزب الشيوعي الذي مر بإرهاصات فكرية وسياسية أدت في النهاية إلى انشقاق في صفوفه، واتهامات متبادلة بين التيارات الفكرية المتنازعة، لقد اعتاد كتاب"الادب الحزبي" ان يخفوا عن القارئ بعض النماذج الثورية التي كانت تخوض صراعا فكريا من اجل التغيير، وربما لان إظهار هذه النماذج يشكل تحديا للقارئ الذي حتما سيكتشف الخطأ من الصواب، وربما هذا ما يفسر خلو الأدبيات الحزبية من هذه النماذج التي تجاهلها التاريخ،وفي الحالات التي ذكرت في التاريخ فقد ذكرت بشكل مشوه وباتهامات شتى.

لقد تجاوزت اهمية هذه الرواية الجانب الادبي والفني، حيث كان سعيد الفلاح وابنته نجاة مدرسة ثورية نشأت وتبلورت في خضم النضال الوطني، وفي الميدان، وهذه التجربة تعتبر مساهمة نوعية في الثقافة التنظيمية والحزبية والعمل النضالي السري الذي يعتقد البعض اننا لم نعد بحاجة اليه نظرا للتطورات السياسية .

لقد كتبت الرواية باسلوب ادبي شفاف يأسر القارئ، ويشده حتى النهاية،وكانت اللغة جميلة وسلسة مفعمة بالوصف الدقيق للأمكنة والشخوص والتفاصيل الدقيقة وقد اهتمت البرغوثي اشد الاهتمام بنقل التجربة كاملة، حتى انها جنحت في

بعض الاحيان الى التقريرية والافراط في التفاصيل، وربما من اجل نقل الحقيقة والصورة كاملتين.

انها رواية تجمع كافة العناصر: اللغة، الاسلوب، المكان، الزمان، الرسالة الوطنية،الدروس والعبر التنظيمية والحزبية، الجرأة في نقل التجربة بامانة ونزاهة،انها رواية ملتزمة كتبت ونشرت في زمن االدعوة للتحلل من الالتزام الثقافي والفكري،حقا ثمة ضوء في نهاية النفق .

وقال **محمد موسى سويلم**:

الرواية عبارة عن تل من الحكايا تدور أحداثها أو دارت عن الأبطال الحقيقين الذين نذروا أنفسهم للعمل النضالي الشريف والشجاع .

رغم أن الرواية هى عبارة عن سيرة ذاتية للكاتبة، إلّا انها أرّخت لزمن كان التعليم للبنات فيه شيئا ليس بذي بال(ممنوع)أو موضع اهتمام حتى من الأسر المقتدرة او الميسورة، وخاصة بنات القرى البعيدة بعض الشيء عن المدينة، نظرا للوضع العام الذي كان سائدا في المنطقة بشكل عام، من حيث المواصلات شبه المعدومة، وغير المتوفرةوقتئذ. ثم حياة القرية المعتمد على الزراعة والرعي، ناهيك عن الزواج المبكر اضافة الى القيل والقال.

مع كل هذا هناك بنات تعلمن ونجحن بفضل الرغبة الشديدة في التعليم ووعي الأهل أحيانا.

الرواية هى وصف حقيقي لكثير من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، والأهم النضالية لكثير من أبناء هذا الوطن،الذين انغمسوا في العمل النضالي الشريف، وكان مصير البعض منهم التهميش والاهمال في كثير من النواحي خاصة العلاجية(الصحية)وحتى في الحياة العامة، والذين قالت عنهم الأديبة وداد(أكلوه لحما ورموه عظما).

روت الأخت وداد بقلم العارف المتمكن الوضع المأساوي الحزين للمعتقلين في السجون،وزياراتهم ومعاناة الأهل والأسير نفسه، وعن المصير في المعتقل وأقبية التحقيق، وعن مستودع الأسرار المكبوتة في صدور السجناء، وعن التهم الموجهة من اقرب المقربين سواء كان ذلك من الأهل أو حتى رفاق الدرب.

روت عن القرية وعن آلامها وعذاباتها وضيقها،وعدم ايجاد الاعذار للمغتربين في حال الفشل،وكان الفشل ممنوعا في الغربة،بل من المحرمات التي يحاسب عليها الأهل والمقربون والشامتون .

روت وداد البرغوثي عن طرق نقل المعلومات بواسطة الكبسولات ..... الخ،روت عن حياة الفلاحين ومعاناتهم وسهرهم على مزارعهم وماشيتهم واملاكهم....تل الحكايا رواية في منتهى البساطة، وبلغة قريبة من الفهم بعيدة عن التعقيد، وضعت فيها كل تجاربها في الحياة بدءا من القرية البسيطة الهادئة الى اجواء المدينة غير المألوفة لها الى الغربة والدراسة الجامعية ..... الخ مستعرضة الحياة النضالية لوالدها المشابهة لحياة الكثيرين من رفاق النضال،

ورحلتها في الحياة العملية في النضال ايضا، الرواية عبارة عن تاريخ شفوي لمرحلة من مراحل العمر، وسيرة ذاتية تمثل المعنى الحقيقي المعاش في مجتمعنا.

وقد شارك في النقاش عدد من النقاد والمثقفين وقدموا مداخلات طويلة ومفيدة أضاءت جوانب من الرواية منهم:ابراهيم جوهر،سمير الجندي،حذام العربي،روضة عليان،وسامي الجندي.

obeikandl.com